الأستاذ رشيد بن مالك

المحاضرة الثانية في مادة السيميولوجيا والأنثريولوجيا

طلبة السنة الثالثة ليسانس

شعبة الأنثربولوجيا

ويمكن أن نسجل بداية تفكير بارث في انفصاله التاريخي عن رؤية سوسير من خلال التقديم الذي وضعه لعدد خاص من مجلة **تبليغات** التي نشرت لأول مرة بحوثا سيميولوجية ومن ضمنها دراسة **مبادئ في علم الأدلة**. وفي هذا الإطار، فإن بعض باحثي مركز دراسات التواصل الجماهيري الذين دفعوا بحوثهم باتجاه التحليل الدلالي، منحت لهم مجلة **تبليغات** فرصة النشر في هذا العدد **"السيميولوجي"**. ومن المفارقات التي تدعو إلى التأمل، والبحث، والتحريات الدقيقة أن التحليل الدلالي في هذه الحقبة شهد حركة غنية وغير عادية، وتحول إلى مركز اهتمام الباحثين لا نلقى له ما يناظره في تاريخ الفكر الأوروبي المعاصر. يلقي گريماس بين سنتي 1963 و1964مجموعة من الدروس حول علم **الدلالة البنيوي** بمعهد هنري بوانكاري، ويصدر بيرنار بوتييه دراسة في **اللسانيات والترجمة الآلية** ويعرض مقترحات منهجية لتحليل المعنى إلى عناصر دنيا، وفي هذه الحقبة أيضا يصدر جان ديبوا بمساهمة گريماس، وموريس كروس، وبيرنار بوتييه، وبيرنار كيمادا، ونيكولا ريويت العدد الأول(1966) من مجلة لغات[60] مخصص للبحوث الدلالية. في إطار هذه الأجواء العلمية العامة، يصدر بارث العدد السيميولوجي ويعلن في المقدمة الافتتاحية عن موقفه من الرؤية السوسيرية.

وقبل أن نتطرق إلى هذه النقطة، وحتى ندرك أبعاد مقترحات بارث المنهجية، يجدر بنا أن نورد في هذا السياق التحديد المثير للجدل الذي وضعه سوسير للسيميولوجيا وطبيعة العلاقة التي تربطها باللسانيات وهذا في معرض حديثه عن اللسان: "إن اللسان نظام من العلامات يعبر عما للإنسان من أفكار، وهو بهذا شيبه بأبجدية الصم البكم، وبالطقوس الرمزية، وبأشكال الآداب، والإشارات العسكرية إلا أنه يعد أرقى هذه الأنظمة جميعها. ومن هنا تأتي إمكانية تصور علم يدرس حياة العلامات في صلب الحياة الاجتماعية، وقد يكون قسما من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي من علم النفس العام، وسنسميه بِـ سيميولوجيا(مشتقة من اليونانية sēmeîon بمعنى علامة). وسيمكننا من التعرف على كنه هذه العلامات وعلى القوانين التي تحكمها. وبما أنه لم يوجد بعد، فإننا لا نستطيع التنبؤ بمآله. ولكن له الحق في الوجود، ومكانته محددة سلفا. وليست اللسانيات سوى قسم من هذا العلم العام. ويمكن أن تطبق قوانينه التي سيكشف عنها على اللسانيات. وستجد اللسانيات نفسها مقترنة بميدان محدد المعالم ضمن مجموع الوقائع البشرية"[61].

يوضح بارث في بداية قراءة النص أن السيميولوجيا تتخذ أنظمة العلامات موضوعا لها بقطع النظر عن ماهيتها وحدودها. "فالصور والإيماءات والأصوات النغمية والأشياء ومركبات تلك الماهيات التي نعثر عليها في الطقوس والتشريفات أو المشاهد تشكل(...) على الأقل أنظمة دلالية"[62] ضاربة جذورها في كل مناحي الحياة الاجتماعية. ويسجل بارث بشيء من التشاؤم أن مصطلح السيميولوجيا لا يبعث على الارتياح ليس لأنه مشروع لقي التأييد المستمر، بل لصعوبة تنفيذه ويأتي كل الخطر من برمجة علم لم يتشكل بعد. فالسيميولوجيا لازالت تبحث عن نفسها باتآد. لقد كان يعتقد سوسير أن اللسانيات ليست إلا قسم من العلم العام للعلامات. ولكنه لم يكن متأكدا بالمرة من وجود أنظمة من العلامات ذات سعة معينة تتميز عن اللغة، في الحياة الاجتماعية[63]. وفي هذا السياق، يعترف بارث بأن "السيميولوجيا لم تجد إلى حد الآن ما تعالجه سوى شفرات غير ذات أهمية كقانون المرور؛ إلا أنه بمجرد الانتقال إلى مجموعات لها عمق اجتماعي حقيقي، نلتقي مرة أخرى باللغة. ومما لا مراء فيه أن الأشياء والصور والسلوكات قد تدل وتدل بغزارة، لكن لا يمكن أن تفعل ذلك بكيفية مستقلة إذ أن كل نظام سيميولوجي يمتزج باللغة. فالماهية البصرية مثلا تعضد دلالاتها من خلال اقترانها برسالة لسانية(كالخيالة[أي السينما] والإشهار، والهزليات، والصور الصحفية الخ.)، بحيث يرتبط جزء من الرسالة الإيقونية، على الأقل، بعلاقة حشو أو علاقة إنابة مع نظام اللسان. أما بخصوص مجموعات الأشياء(كاللباس، والطعام)، فهي لا ترقى إلى مستوى الأنظمة إلا بالمرور عبر البديل اللساني الذي يجزئ دوالها(في شكل لوائح مصطلحية)، ويسمي مدلولاتها(في شكل استعمالات أو أسباب)(...) ويبدو لنا في النهاية أن تخيل نظام من الصور والأشياء التي تستطيع مدلولاتها أن تتواجد خارج اللغة أمرا يزداد صعوبة أكثر فأكثر: إن إدراك معنى ماهية ما معناه اللجوء حتما إلى التقطيع الذي يقوم به اللسان : لا يوجد المعنى إلا مسمى، وليس عالم المدلولات بشيء آخر غير عالم اللغة. وعلى هذا الأساس، فإن السيميولوجي رغم اشتغاله في البداية على ماهيات غير لسانية منذور عاجلا أو آجلا للعثور على اللغة ("الحقيقية") ليس باعتبارها نموذجا وإنما بصفتها مكونا أيضا، وكبديل أو كمدلول. إلا أن هذه اللغة لم تعد شبيهة لغة اللسانيين : إنها لغة ثانية، ليست وحداتها هي (المفردات) monèmes أو الوحدات الصوتية إنما أشطار خطابية أوسع تحيل إلى الأشياء أو فصول الحوادث التي تدل تحت اللغة دلالة لكن ليس بدونها أبدا"[64].

في إطار هذا التصور تهدف السيميولوجيا إلى فهم الطريقة التي تبلور بها الدلالة في مختلف الإنتاجات الاجتماعية (أشياء الاستهلاك، موضات، طقوس) المتجلية عبر مختلف أنظمة التواصل الجماهيري. وينتهي بارث إلى الإقرار بإمكانية قلب المقترح السوسيري في يوم ما : "ليست اللسانيات جزءا، ولو

مفضلا، من علم العلامات العام، ولكن الجزء هو السيميولوجيا باعتبارها فرعا من اللسانيات: وبالضبط ذلك القسم الذي سيتحمل على عاتقه كبريات الوحدات الخطابية الدالة"[65].

بهذه الرؤية المنهجية، سينتاول رولان بارث بالدرس والتحليل نطام الموضة، وسيتساءل من جديد فيما إذا أمكن لنظام من الأشياء الاستغناء عن اللغة. هل يمكن أن يستغني اللباس عن اللغة التي تصفه تعلق عليه تهبه هبة غزيرة من الدوال والمدلولات ليشكل نظاما من الدلالات؟[66]. تساؤل يقوده إلى النتيجة نفسها التي انتهى إليها في **المبادئ**، وهي ضرورة قلب الصياغة السوسيرية، والإقرار بأن السيميولوجيا هي التي تعد قسما من اللسانيات. ولئن كان هذا التأكيد يعكس قناعته بانغماس مختلف أشكال التعبير في السيرورة اللغوية ولا يمكن فصلها عنها، وأن عملية القلب مشروعة علميا إلا أن تصوره للمشروع السيميولوجي لن يخرج عن الإطار العام الذي وضع سوسير أسسه من خلال الدفع بالسيميولوجيا في اتجاهين. يكتسي الأول طابعا نطميا syntagmatique ويستمد وجوده من التحليل البنيوي للرسالة السردية. ويتسم الثاني بالطابع الاستبداليparadigmatique ويتحدد موضوعه بتصنيف الوحدات الإيحائية[67].